المتلقي عند ابن قتيبة الدينوري في مقدمة كتابه عيون الأخبار

إعداد :
د. الخير عامر رحب عبد الكريم
محاضر بجامعة سبها، كلية التربية الغريفة
أ. آمنة عبد السلام ربوه
محاضر مساعد بجامعة سبها، كلية التربية الغريفة

الاستلام : 20/ 1/ 2023 القبول : 22/ 02/ 2023

المستخلص:

تهدف هذه الدراسة إلى التعرف على دور المتلقي من خلال نظرية التلقي التي شيدها وأسس بنيانها ابن قتيبة الدينوري (276هـ) . وجاءت الدراسة في مقدمة وثلاثة محاور:

المحور الأول : المتلقي سامعاً وقارئاً .

المحور الثاني: المقدمة بين المؤلف والمتلقي .

المحور الثالث: مقدمة عيون الأخبار .

لتصل الدراسة إلى أن ابن قتيبة أبدى اهتماماً كبيراً بالمتلقي، فكان حضوره طاغياً في مقدمة كتابه،؛ بل إن المتلقي كان سبباً رئيساً في صبغ الكتاب بصبغته التي ظهر عليها .

وتوصلت أيضاً إلى أنه كاتب وناقد يمثل عصراً ومرحلة، ويمثل المفكر الشمولي النفعي في طرح نظريته في الكتابة .

الكلمات المفتاحية : نظرية التلقي، دور المتلقي، النقد الأدبي.

The recipient according to IbnQutayba Al-Dinuriin the introduction to his book, Oyoun al-Akhbar

Abstract

This study aims to identify the role of the recipient through the reception theory that was proposed and developed by IbnQutayba al-Dinuri (276H).

The study is divided into an introduction and three parts:

The first part: the recipient is a listener and a reader.

The second part: the introduction between the author and the recipient.

The third part: Introduction to”Oyoun al-Akhbar”.

The study concludes that IbnQutayba showed great interest in the recipient, so his presence was overwhelming in the introduction to his book; Rather, the recipient was a major reason for imbuing the book in the way it appeared.

I also concluded that he is a writer and critic who represents aperiodand an era. He also represents the utilitarian holistic thinker in presenting his theory of writing.

Keywords: reception theory, the role of the recipient, literary criticism.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فيعد ابن قتيبة الدينوري واضع حجر الأساس في تاريخ نظرية التلقي في النقد الأدبي العربي، فقد انصب اهتمامه على الشعر، فركز بشكل كبير على الشعراء واهتم بحياتهم وأخبارهم وأشعارهم وتربيتهم وأنسابهم .

وأما كتابه عيون الأخبار فيعد مثالاً للتأليف الأدبي في التراث العربي، كما يُعد كنزاً من كنوز الثقافة العربية عبر تاريخها الطويل، فهو يجمع بين آداب السياسة وأصولها والصفات التي يجب على السلطان أن يتحلّى بها، وآداب الحرب وفنونها، والطعام وألوانه وفنونه إلى آخر ما نراه من ألوان الثقافة العامة التي ينبغي على المرء الإلمام بأطرافها، ويجمع إلى ذلك الأخبار والروايات والحكايات والأحداث والنوادر والأشعار التي يأتي بها للاستشهاد على ما يقول .

وكانت طبيعة الموضوع تحتم علينا المُضي على هذا المنوال، فبدأنا بالمقدمة، ثم المحور الأول : المتلقي سامعاً وقارئاً .

ثم المحور الثاني: المقدمة بين المؤلف والمتلقي .

ثم المحور الثالث: مقدمة عيون الأخبار .

ثم الخاتمة التي تناولت أهم النتائج التي تم التوصل إليها .

1) المتلقي سامعاً وقارئاً :

المتلقي في سياق هذا البحث هو القارئ المفترض أو المتوقع، الذي كان سامعاً إبان عصر الرواية، وبسبب من تداخل التأليف والرواية في ظل الحضارة العربية يكون المتلقي سامعاً وقارئاً في الوقت ذاته، وتحمل لغة التأليف في طياتها سمات اللغتين المكتوبة والمنطوقة معاً .

فعلى الرغم من دخول الثقافة العربية في عصر تدوين حقيقي في بداية النهضة العربية الإسلامية أواخر الدولة الأموية وأوائل الدولة العباسية فما زالت آثار الرواية بادية في الكتابات الأولى ومستمرة في الكتابات التالية لذلك بدرجات متفاوتة، ففي العصر العباسي الثاني بقي النظر إلى الرواية على أنها الأصل وكانوا يقولون في معرض الذم: "هل هو إلا لحانة صحفي لمن يأخذ الصحف عن المشائخ"[1] . وقد ذموا الصحف؛ لأنها تحل محل الشيخ أو الأستاذ، فكيف لجلد أو عظم أو ورق أن يكون – وهو الميت-مصدراً للعلم وبديلاً عن الإنسان الحي العالم؛ لذا قيل: نأخذ علمنا عن الأحياء ولا نأخذه عن الأموات .

فما زال النقل الشفهي وديوان السماع هو الغالب إبان ازدهار الحضارة العربية الإسلامية في القرن الخامس الهجري[2] ، ولا أدل على استمرار هذا التقليد

(1) ابن قتيبة العالم الناقد الأديب، عبد الحميد سند الجندي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، د ط، 1962م، ص 12 .

(2) البصائر والدخائر، أبو حيان علي بن محمد التوحيدي، تحقيق: وداد القاضي، دار صادر، بيروت، ط 1، 1984م، 1/ 2 .

مـن أن الأصلـين الكبيريـن في الثقافـة العربيـة الإسـلامية : القـرآن الكريـم والسـنة النبويـة، مـازالا ينقـلان مشـافهة وروايـة إلى يومنـا هـذا .

وآثـار الروايـة كانـت ظاهـرة بوضـوح في الكتابـات الأولى، مثـل كتابـات الأصمعـي (ت 210هـ) والجاحـظ (ت 255هـ) وابـن قتيبـة (ت 276هـ) والمـبرد (ت 286هـ) وغيرهـم في الخطـب أو المقدمـات، وفي المتـون التـي تحفـل بسلاسـل الـرواة لتوكيـد صدق الخـبر بالإسـناد المنضبـط المكتـوب، وإن أثقـل كاهـل النـص المُؤَلَّـف، ومـا ذلـك إلا خدمـة لفكـرة الموثوقيـة المسـيطرة عـلى الروايـة الشـفهية، والمندرجـة كذلـك عـلى هـذه الكتابـة التأليفيـة[3] .

لذلـك كلـه حفلـت هـذه الكتابـة التأليفيـة بمظاهـر متعـددة تـدل دلالـة واضحـة عـلى أن المتلقـي في هـذه الكتـب أو المقدمـات هـو سـامع وقـارئ في آن واحـد، وأهـم تلـك المظاهـر مـا يـلي:

أولاً: افتتـاح الكتـب المؤلفـة بصيغـة تـدل عـلى النقـل، مثـل كلمـة قـال المؤلـف أو المصنـف أو فـلان، ممـا يوحـي بـأن الكتـاب قيـل عـلى مسـمع قبـل تأليفـه .

ثانيـاً: افتتـاح الكتـب المؤلفـة بخطبـة (وهـي المقدمـة) تشـتمل عـلى عنـاصر الخطبـة الشـفهية المعهـودة مـن حمـد اللـه وثنـاء عليـه، وصـلاة عـلى رسـوله، ودعـاء للكاتـب وللقـارئ والسـامع ثـم عـرض الموضـوع .

ثالثـاً: عـدم تنسـيق مـواد كثـير مـن الكتـب المؤلفـة، وظهـور اسـتطراد المتحـدث فيهـا أكثـر مـن انضبـاط أو تنظيـم المؤلـف لهـا، كمـا في (البيـان والتبيـين) للجاحـظ، و(الكامـل في اللغـة والأدب) للمـبرد .

رابعـاً: كثـرة وجـود كتـب الأمـالي والمجالـس وغيرهـا، وهـي التـي تـدل عـلى أنهـا ألفـت أصـلاً بالإمـلاء والقـول لا بالكتابـة التأليفيـة المعهـودة لاحقـاً .

خامسـاً: كثـرة ورود صيـغ الدعـاء للمتلقـي القـارئ والسـامع في مفتتحـات الجمـل اسـتمالة لـه أو تحببـاً إليـه .

فهـذه المظاهـر وغيرهـا سـاعدت عـلى ان يكـون المتلقـي سـامعاً أكثـر منـه قارئـاً، ومـن ثـم فقـد ضمـن لـه هـذا الأمـر بـروزاً أجـلى وأظهـر في نصـوص التأليـف الأولى، حتـى أمكـن إطـلاق لفـظ المتلقـي عليـه؛ لأنهـا تجـوز عـلى السـامع والقـارئ معـاً.

وتجـدر الإشـارة هنـا أن هـذه المظاهـر السـالفة أو بعضهـا قـد غـدت مـن السـنن المحببـة في أسـاليب الكتابـة والتأليـف، فاسـتمر وجودهـا في عصـور متأخـرة تقليـداً كتابيـاً لا يخلـو مـن جمـال وبراعـة، كمـا هـو الشـأن في اسـتخدام صيـغ الدعـاء للقـارئ في الكتابـة حتـى يومنـا هـذا .

2) المقدمة بين المؤلف والمتلقي :

عندمـا تتضـام أجـزاء الكتـاب وتأتلـف في مرحلـة تاليـة، يتكامـل مفهـوم الكتـاب التأليفـي، فيغـدو أكثـر أمانـة لذاتـه، وأشـد إخلاصـاً لوحدتـه وتلاحمـه؛ لـذا تتراجـع شـخصية الكاتـب المتحـدث مـن بـين ثنايـاه، ولا يعـود للقـارئ بـروز كبـير فيـه، فـلا

(3) مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، ناصر الدين الأسد، دار المعارف، القاهرة، ط 5، 1978م، ص 179- 182 .

يبقى أمام المؤلف إلا المقدمة، يفزع إليها ليلتقي قارئه فيها؛ لذلك يتعاظم دورها، وتصبح مركزية في بنية الكتاب، وتفصح عن حرارة اللقاء بين المؤلف والقارئ.

في المقدمة يكون اللقاء مباشراً بين كل منهما، فإما أن يمضي القارئ قدماً ويلج الكتاب بسبب من قراءتها، وإما أن يتراجع إذا أخفق المؤلف في استمالته وإقناعه، لذلك استقرت المقدمة تقليداً راسخاً في الكتابة على مر العصور، وتحددت له ملامح كثيرة "لقد دأب مؤلفو الكتب منذ القديم على نهج سنة التمهيد لمؤلفاتهم بمقدمة غالباً ما تتضمن الإشارة إلى دوافع التأليف والمنهج والمضمون والهدف واسم المؤلف وكتابه، وخاصة في الكتب التراثية"[(4)]، وغدا من المعهود أن " المقدمات تكتب لشرح مناهج الكتب"[(5)].

فهذه المقدمة أو تلك "تحاول تحديد زاوية النظر إلى العمل كما تحاول إبرازه باعتباره ثمرة إنتاج موجه بطريقة ما. وإنه لا بد من تقدير ذلك التوجه، فهي إذن تدافع عن النص ضد عدم الفهم، وضد التأويلات المغلوطة، كما تحرص على إعادة تداوله وإبراز رسالته، لكنها تبقى بدورها خطاباً مكتوباً يحتاج إلى قراءة ويحتاج إلى تأويل"[(6)].

لذلك تبرز أهمية إعادة القراءة لكثير من المقدمات التراثية؛ لما تنطوي عليه من أهمية في قراءة تلك الكتب التي قدمت لها، أو في قراءة عصر التأليف، أو في قراءة تلك المقدمات إلى بعضها البعض؛ لقيمتها في ذاتها، ولأهميتها في بنية الكتاب بعامة، فالمقدمة " قد يعول عليها الكاتب كثيراً في جذب قارئه، أو في التأثير عليه أو الإيعاز له باستراتيجيته الخاصة، ونظراً لأهميتها في مصاحبة النص، وفي تأطيره فقد أُوليت أخيراً أهمية كبيرة في الدراسات الأدبية. وذهب البعض إلى حد اعتبارها جنساً أدبياً خاصاً ربما يتغير تعريفه فقط أو تختلف النظرة إليه بحسب الاتجاهات والعصور"[(7)].

ونظراً إلى هذه الأهمية لم يكن غريباً أن بلغت مقدمة ابن خلدون (ت 808هـ) ما بلغت من حيث الحجم في تأليفها، والأثر فيما تلاها من دراسات، حتى بلغت شهرتها الآفاق وقرئت قراءات متعددة على توالي العصور، وبها وحدها صار ابن خلدون من أشهر الكتّاب العرب والعالميين.

ومن المقدمات الأخرى التي نالت شهرة كذلك في حقل محدد كالنقد، مقدمة ابن سلام الجمحي لكتاب (طبقات فحول الشعراء) التي أعاد قراءتها سليمان

(4) خطاب المقدمات في شروح مخطوطة: لما أبدعه الحريري من مقامات، بوجمعة جمي، مقال منشور في مجلة جذور التراث، النادي الثقافي بجدة، عدد 1، فبراير 1999م، ص 237.

(5) قراءة في مقدمة طبقات فحول الشعراء لابن سلام، سليمان الشطي، بحث منشور في مجلة عالم الفكر، الكويت، عدد 1، مجلد 18، سنة 1987م، ص 160.

(6) قراءة في خطاب المقدمات واستراتيجية التقديم، محمد خرماش، مقال منشور في مجلة أفكار، عمان، عدد: 138، ديسمبر 1999م، ص 49.

(7) المصدر نفسه، ص 49.

الشـطي في بحـث مسـهب وبـيّن أثرهـا في مسـيرة النقـد العربـي، لمـا فيهـا مـن تنظيـم، ولمـا تحـوي مـن أفـكار نقديـة مبكـرة، ونعتهـا بالتميـز، ثـم قـال: "ولا أعـرف مقدمة – بعـد مقدمـة ابـن خلـدون –أثـارت واسـتوقفت الباحثـين مثلمـا فعلت هـذه المقدمـة[8] .

3) مقدمة عيون الأخبار:

تعـد مقدمـة عيـون الأخبـار واحـدة مـن أكثـر المقدمـات التراثيـة المبكـرة دقـة وإحكامـاً فهـي عـبرت بوضـوح عـن شـخصية كاتبهـا، وعـن تماسـك كتابتـه، وأبانـت عـن حقيقـة الكتـاب مـن جوانبـه جميعـاً، ولعـل المقدمـة ومـن ثـم الكتـاب بمـا فيـه، يـدلان معـاً عـلى أن كتـاب عيـون الأخبـار كان مـن أواخـر مـا ألـف ابـن قتيبـة في حياتـه لمـا ينطويـان عليـه مـن دربـة ومـراس .

فإمعـان النظـر في هـذه المقدمـة مـن شـأنه أن يعـرّف المـرء بعقليـة المؤلـف التصنيفيـة الدقيقـة، وبطبيعـة المتلقـي عـلى خـلاف أحوالـه، وبهيـكل الكتـاب وبنائـه الموسـوعي .

وقبـل ديباجـة التقديـم تـرد العبـارة التاليـة: قـال الإمـام أبـو محمـد عبـد اللـه بـن مسـلم بـن قتيبـة الدينـوري-رضي اللـه عنـه- (ابـن قتيبـة)، والتـي تشـير إلى أن المقدمة رويـت أو أمليـت إمـلاء عـلى عـادة المتقدمـين في تأليفاتهـم، فمتلقيهـا هـو القائـل الأول لتلـك العبـارة، تلميـذاً كان أو ناسـخاً، وفي نعـت ابـن قتيبـة بالإمـام والـترضي عنـه توكيـد للمقولـة الشـهيرة بحقـه، "هـو لأهـل السـنة مثـل الجاحـظ للمعتزلـة"[9] وقـد كان هـذا الإمـام القـاضي مـن أبـرز الأدبـاء الممثلـين للتجديـد السـني في القـرن الثالـث الهجـري [10]

ديباجة التقديم:

إن صفـات الـذات الإلهيـة التـي ينتقيهـا المؤلـف في عباراتـه الأولى في ديباجتـه لا تخلـو مـن دلالـة في سـياق تقديمهـا لهـذا الكتـاب فهـي صفـات تفتـح أفـق المتلقـي عـلى رحابـة تلـك الـذات وتشـيع جـوّاً مـن التسـامح والانطـلاق بمعانيهـا وبتكـرار مضامينهـا في الجمـل وبتقبلهـا الـدال، فهـو يحمـد اللـه "الـذي يعجـز بـلاؤه صفـة الواصفـين وتفـوت آلاؤه عـدد العادّيـن وتسـع رحمتـه ذنـوب المسرفـين، والحمـد اللـه الـذي لا تحجـب عنـه دعـوة ولا تخيـب لديـه طلبـة ولا يضـل عنـده سـعي، الـذي رضي عـن عظيـم النعـم بقليـل الشـكر وغفـر بعقـد النـدم كبـير الذنـوب ومحـا بتوبـة السـاعة خطايـا السـنين"[11]

كمـا أن الصفـات التـي يصـف المؤلـف بهـا النبـي مـن شـأنها أن تشـيع الجـو ذاتـه،

(8) قراءة في مقدمة طبقات فحول الشعراء لابن سلام، ص 157 .

(9) تفسـير سـورة الإخـلاص، تقـي الديـن أحمـد بـن عبـد الحليـم ابـن تيميـة، راجـع النصـوص وخـرّج الأحاديـث: عبـد العـلي عبـد الحميـد حامـد، الـدار السـلفية- بومبـاي، ط 1، 1986م، ص 187 .

(10) دراسـات في اللغـة واللهجـات والأسـاليب العربيـة، يوهـان فلـك، ترجمـة : رمضـان عبـد التـواب ، مكتبـة الخانجـي – القاهـرة، د ط، 1980م، ص 138 .

(11) عيـون الأخبـار، ابـن قتيبـة الدينـوري، ضبطـه ووثـق نصوصـه وعلـق عليـه: الدانـي بـن منـير آل زهـوي، المكتبـة العصريـة، صيـدا، بـيروت، ط 1، 2003م، 1/ 13 .

وأن تعزز المعاني التي هدف إلى بثها في نفس المتلقي فالنبي هو البشير النذير السراج المنير والهادي إلى الرضا، والداعي إلى المحبّة والدالّ على سبيل الجنة فاتح باب الرحمة ومغلق باب السخط [12]

فهذه الصفات جميعاً تركز اهتمامها في الابتعاد عن الانقباض والتحلل قليلاً من الخوف من مقارفة الإثم، فأبواب الحلال أوسع من مغاليق التحريم، وعلى المتلقي أن يتقبل ما سيأتي لاحقاً بعيداً عن التزمت .

ولسنا نغالي إذا زعمنا أن ديباجة المقدمة في الكتاب العربي القديم لا تخلو في أغلب الأحيان من مثل هذا التسهيم بالإشارة إلى طبيعة مراد المؤلف، وأن وصف الذات الإلهية أو صيغ الدعاء للقارئ أو للمؤلف أو للمسلمين عامة في المقدمة يكون متصلاً بسبب بمحتوى الكتاب وطبيعته .

ولعل هذا ما هدف إليه الكاتب هنا حين انتقى واختار ، ووطأ للكتاب ولموضوعات المقدمة التالية ، فهيأ المتلقي لجو التسامح أملاً في إقصاء أجواء التحريم والتزمت؛ لوعيه الدقيق بحالة أولئك المتلقين .

وفي الفقرة التالية أفاد من الإطار الديني العام بالإشارة إلى أن "زكاة العلم نشره، وخير العلوم أنفعها، وأنفعها أحمدها مغبّة، وأحمدها مغبّة ما تعلّم وعلّم لله وأريد به وجه الله تعالى"[13] وهو بهذا يدافع مقدماً عما سيأتي لاحقاً فيربط العلم بالمنفعة المباشرة عملياً، وبالنية الخالصة دينياً، ثم يعطف على العلم والعمل ويلحمهما بالدعاء إلى الله في الفقرة الأخيرة من ديباجته .

ويظهر تكامل الديباجة في اكتمال عناصر الخطبة فيها، وهي التي تدل على الملامح الشفهية في بدايات التأليف عند العرب، فقد حوت حمد الله والثناء عليه ثم الصلاة على الرسول -صلى الله عليه وسلم- ثم قول القائل أما بعد، وعرض للموضوع، وأخيراً اختتام بالدعاء ، وذلك تمام الفقرات الثلاث الأولى، وهذه هي الخطبة المعهودة للكتب القديمة، لكن ابن قتيبة يقوم بعد ذلك بعرض مقدمته الضافية الجامعة .

دواعي التأليف:

إن كتاب عيون الأخبار يستكمل المهمة التي اضطلع بها كتاب "أدب الكاتب" فالأمر الذي دعا ابن قتيبة إلى تأليف كتابه السابق هو ذاته الذي يحذوه إلى القيام باستكماله في هذا الكتاب" فأكملت له ما ابتدأت وشيّدت ما أسّست"[14] فإذا كان "شمول النقص ودروس العلم وشغل السلطان عن إقامة سوق الأدب"[15] دافعه إلى تأليف (أدب الكاتب)، فهو دافع تعليمي تربوي، وقد كان طلب إلى متلقي ذاك الكتاب- وهو مغفل التأدب من الكتاب- وشرط عليه أن يعي ما فيه، وأن

(12) انظر: المصدر نفسه، الموضع ذاته .

(13) المصدر السابق، الموضع ذاته .

(14) المصدر نفسه، 1/ 14 .

(15) المصدر نفسه، 1/ 13 .

يحفظ عيون الحديث "ليدخلها في تضاعيف سطوره متمثلا إذا كاتب، ويستعين بما فيها من معنى لطيف ولفظ خفيف حسن إذا حاور"[16] .

لكن المؤلف خشي على متلقيه أن يتهاون ويعجز أو أن يضعف ويكل لخور طباعه، فوضع له هذه العيون المختارة والمنتقاة، وهي كتاب عيون الأخبار؛ ليريحه من كد التعب وطول البحث، وهو يدرك أهمية هذا العمل له " ذلك عمل من طبّ لمن حبّ بل عمل الوالد الشفيق للولد البرّ ورضيت منه بعاجل الشكر وعوّلت على الله في الجزاء والأجر"[17] .

ابن قتيبة إذن يعنى بتحديد شخصية المتلقي، وهو المتأدب، ثم يعنى بحالاته في الكتابة والمحاورة، كما أنه يدرك حالاته النفسية بما يعتريه من ضعف وعجز وتهاون فلا يكله إلى نفسه، ثم يشيع بينه وبين المتلقي ذاك جوّاً من الألفة، ويهبه قسطاً من المحبة لينال منه الشكر عاجلاً، لكنه يبقى متصلاً بأفق أرحب، حين يرجو الجزاء والأجر من الله، لتأكده من علو شأن ما في كتابه من الوجهة الدينية الخالصة المرتبطة بهدفه النهائي منه .

فإذا اتضحت الصلة المتينة بين كتابي "أدب الكاتب" و"عيون الأخبار" الذي "يكمله في الغاية والمنهج"[18] فهل سيقصر ابن قتيبة كتابه الأخير على متلقي كتابه الأول؟ .

موضوع الكتاب وتسميته وأهميته والهدف منه :

حين يبين المؤلف موضوع الكتاب يفاجئ المتلقي بأنه ليس في القرآن والسنة وشرائع الدين وعلم الحلال والحرام، ولكنه مع ذلك دال على معالي الأمور، ومرشد إلى الأخلاق الكريمة. ويؤكد هذا الرأي أن الطريق إلى الله ليس واحداً ولا ينحصر تحديداً في الشعائر التعبدية من صلاة وصوم، أو في علم الحلال والحرام " بل الطرق إليه كثيرة وأبواب الخير واسعة وصلاح الدين بصلاح الزمان، وصلاح الزمان بصلاح السلطان، وصلاح السلطان بعد توفيق الله بالإرشاد وحسن التبصير"[19] .

هذه نزعة إنسانية عامة تؤمن بالخير المطلق، وتقر بتعدد الطرق إلى الله، أي بالخروج من الدائرة الضيقة للدين الواحد، والدخول في رحابة الفكر الإنساني العام، ولعل ابن قتيبة يقدر بوعي قوة التيارات الأجنبية التي تتكالب على الناس في عصره؛ لذا يريد للخطاب الديني الإسلامي أن يخرج من إطار الشعائر التعبدية المحدودة إلى فضاء روحي أوسع، فيؤكد أهمية هذا التوجه باتساع أبواب الخير أولاً، وبتقديم أثر السلطان على القرآن في إقامة الحق ومن ثم في إقامة أمر الدين ذاته. وانتصاره الأجلى يكون للمعرفة التي تشكل القوة الأولى، فالمفكر أو

(16) المصدر نفسه، 1/ 14 .

(17) المصدر السابق، 1/ 14 .

(18) ابن قتيبة نوابغ الفكر العربي، محمد زغلول سلام، دار المعارف، القاهرة، د ت، ص 47 .

(19) عيون الأخبار، 1/ 14 .

العالـم هـو المرشـد المؤثـر في السـلطان والسـلطان هـو المؤثـر في الزمـان والزمـان هـو المؤثـر في الديـن أخـيراً .

فالحجـاج المنطقـي الـذي ختـم بـه المؤلـف هـذه الفقـرة يقابـل صرامـة البيـان الصـارم الـذي واجـه بـه المتلقـي في بدايـة الفقـرة ذاتهـا حـين عـرف موضـوع الكتـاب بالسـلب فنفـى الصفـة الدينيـة عنـه. وهـذا- عـلى مـا يبـدو- مـن أهـم أفـكار المقدمـة جـرأة واتسـاع أفـق .

أمـا موضـوع الكتـاب الـذي صـار علمـاً عليـه فهـو (عيـون الأخبـار) كمـا يـصرح بذلـك منتـصراً لمحتـوى الكتـاب، بإضافـة صفـة عيـون إلى الأخبـار، معليـاً مـن شـأن تلـك الأخبـار، وواعيـاً بأهميـة إثبـات ذكـر العنـوان في سـطور المقدمـة، خلافـاً للكثـير مـن الكتـب التراثيـة التـي يستشـكل الأمـر في تحديـد عنواناتهـا بدقـة. ولعـل العنـوان مـن العلامـات المهمـة والشـواخص المؤثـرة في المتلقـي كثـيراً، فقـد قـال ميشـيل هـاوزر (Michelle Hauser):"قبـل النـص هنـاك العنـوان، وبعـد النـص يبقـى العنـوان"[20] ، ثـم يضيـف ابـن قتيبـة منتـصراً لهـذه الأخبـار قولـه :" وهـي لقـاح عقـول العلمـاء ونتـاج أفـكار الحكمـاء وزبـدة المخـض وحليـة الأدب وأثمـار طـول النظـر والمتخـيّر مـن كلام البلغـاء وفطـن الشـعراء وسـير الملـوك وآثـار السـلف"[21]. وبهـذا يؤكـد أن وصفهـا بالعيـون لـم يكـن جزافـاً، بـل لأنهـا تسـتحق هـذا الوصـف بجـدارة، فشرفهـا مـن شرف أصحابهـا، وقيمتهـا في أنهـا مختـارة ومنتقـاة بعنايـة مـن تلـك المصـادر المهمـة المتنوعـة .

وحفاظـاً عـلى موقفـه الدينـي وانسـجاماً مـع توجهـه الأخلاقـي العـام، خـص موضـوع (الزهـد) دون سـواه بعنايتـه في الكتـاب، ومقابـل ذلـك جعـل فيـه "نـادرة طريفـة وفطنـة لطيفـة وكلمـة معجبـة وأخـرى مضحكـة لئـلا يخـرج عـن الكتـاب مذهـب سـلكه السـالكون وعـروض أخـذ فيهـا القائلـون"[22] ، وهـذا يفـضي بنـا إلى تلمـس الرؤيـة العامـة التـي كان يراهـا المؤلـف للصلـة مـا بـين الحيـاة الواقعيـة وحيـاة الكتـب ، وعـلى الأخـص كتـب الأدب العـام التـي تمتـاز بالموسـوعية، وتشـكل وعـاء حاويـاً لمـا أمكـن مـن حـوادث الواقـع، أي هـي تـوازي الوجـود الفعـلي، وتحـاول اسـتيعاب حركـة الواقـع المتحقـق في الحيـاة، والتجـارب المتعـددة، ونقـل ذلـك كلـه ليغـدو تجـارب وخـبرات، لكنهـا عـلى الـورق، وبـذا راح يبحـث المؤلـف عـن أقـوال في كل مذهـب سـلكه السـالكون، وعـروض أخـذ فيهـا القائلـون .

أما الملحظ النفسي لهذا التنوع فيصرح به المؤلف بقوله :" لأروّح بذلك عن القارئ من كدّ الجدّ وإتعاب الحق فإنّ الأذن مجّاجة والنفس حمضة" مؤكداً أن هاجسه الأول والأخير يبقى هو المتلقي، لذا فقد عني بحالاته كلها، فكلما نوّع في المعارف والأخبار، وحدد معالمها، أشار إلى

(20) قـراءة في خطـاب المقدمـات واسـتراتيجية التقديـم، محمـد خرمـاش، مقـال منشـور في مجلـة أفـكار، عمـان، عـدد: 138، ديسـمبر 1999م، ص 49، 50

(21) عيون الأخبار، 1/ 14 .

(22) المصدر نفسه، 1/ 15 .

الهدف من ذلك بالنسبة إلى هذا المتلقي، ويحسن هنا أن نتقصّى أحواله وتجلياته المتعددة التي فصّل فيها المؤلف القول بعباراته هو:

"وهذه عيون الأخبار نظمتها لمغفل التأدب تبصرة ولأهل العلم تذكرة ولسائس الناس ومسوسهم مؤدّبا وللملوك مستراحا من كدّ الجدّ والتعب وصنّفتها أبوابا وقرنت الباب بشكله والخبر بمثله والكلمة بأختها ليسهل على المتعلم علمها وعلى الدارس حفظها وعلى الناشد طلبها، وهي لقاح عقول العلماء ونتاج أفكار الحكماء وزبدة المخض وحلية الأدب وأثمار طول النظر والمتخيّر من كلام البلغاء وفطن الشعراء وسير الملوك وآثار السلف. جمعت لك منها ما جمعت في هذا الكتاب لتأخذ نفسك بأحسنها وتقوّمها بثقافها وتخلّصها من مساوئ الأخلاق كما تخلص الفضة البيضاء من خبثها، وتروضها على الأخذ بما فيها من سنة حسنة وسيرة قويمة وأدب كريم وخلق عظيم، وتصل بها كلامك إذا حاورت وبلاغتك إذا كتبت، وتستنجح بها حاجتك إذا سألت، وتتلطف في القول إن شفعت، وتخرج من اللوم بأحسن العذر إذا اعتذرت فإنّ الكلام مصايد القلوب والسحر الحلال، وتستعمل آدابها في صحبة سلطانك وتسديد ولايته ورفق سياسته وتدبير حروبه، وتعمر بها مجلسك إذا جددت وأهزلت وتوضح بأمثالها حججك وتبذّ باعتبارها خصمك حتى يظهر الحقّ في أحسن صورة وتبلغ الإرادة بأخف مؤونة، وتستولي على الأمد وأنت وادع وتلحق الطّريدة ثانيا من عنانك وتمشي رويدا وتكون أوّلا هذا إذا كانت الغريزة مواتية والطبيعة قابلة والحسّ منقادا، فإن لم يكن كذلك ففي هذا الكتاب، لمن أراه عقله نقص نفسه فأحسن سياستها وستر بالأناة والرويّة عيبها ووضع من دواء هذا الكتاب على داء غريزته وسقاها بمائه وقدح فيها بضيائه، ما نعش منها العليل وشحذ الكليل وبعث الوسنان وأيقظ الهاجع حتى يقارب بعون الله رتب المطبوعين، ولم أر صواباً أن يكون كتابى هذا وقفا على طالب الدنيا دون طالب الآخرة ولا على خواص الناس دون عوامّهم ولا على ملوكهم دون سوقتهم، فوفّيت كلّ فريق منهم قسمه ووفّرت عليه سهمه وأودعته طرفا من محاسن كلام الزهاد في الدنيا وذكر فجائعها والزوال والانتقال وما يتلاقون به إذا اجتمعوا ويتكاتبون به إذا افتر قول في المواعظ والزهد والصبر والتقوى واليقين وأشباه ذلك لعل الله يعطف به صادفا، ويأطر على التوبة متجانفا، ويردع ظالما ويلين برقائقه قسوة القلوب"[23] .

فإذا كانت مادة الكتاب تمثل بشمولها جوانب الحياة كلها، فمتلقي الكتاب يجب أن يمثل أيضاً جميع الناس، لذا فقد جعله ابن قتيبة موجهاً إلى المتأدبين والعلماء، وسائسي الناس ومسوسيهم، أو خواص الناس وعوامهم، أو ملوكهم وسوقتهم. فلم تخرج طبقة من الناس عن إطار التلقي، ولم تخرج فئة أو طائفة أيضاً، فلن يخص به طالب الدنيا دون طالب الآخرة، حرصاً على ذلك الشمول .

(23) المصدر السابق، 1/ 14، 15 .

وكما دعت مواد الكتاب، الممثلة لجوانب الحياة جميعاً، إلى التنوع في شخصية المتلقي كذلك ساهمت في التعامل مع حالاته كلها، حرصاً على موسوعية الكتاب، وإيماناً بتلك الموسوعية الشاملة. فهدف المؤلف -كما صرح في المقدمة- موجّه إلى تربية المتلقي نفسياً وخلقياً ودينياً واجتماعياً وعلمياً .

فالتربية النفسية والخلقية والدينية تتمثل في تثقيف النفس، وتخليصها من مساوئ الأخلاق وترويضها على الأخذ من السنة الحسنة والسيرة القويمة والأدب الكريم والخلق العظيم. وكذلك يهتم المؤلف بذوق المتلقي أيما اهتمام، فإذا كان صاحب ذوق رفيع وغريزة مواتية فإن هذه المواد المبثوثة في الكتاب تساعده على بلوغ رتبة أرفع ويصير سابقاً بفضلها. أما إذا كان سقيم الغريزة أو الطبع فإن هذه المواد تساعده على رفع ذائقته؛ لأن منها ما ينعش العليل ويشحذ الكليل ويبعث الوسنان ويوقظ الهاجع. وكذلك من مهمات الكتاب أن يعيد الصادف أو المنحرف إلى الطريق القويم، والعاصي إلى التوبة، وقاسي القلب إلى الحق بما في الكتاب من عبر تلينه وتعيده إلى ذلك .

أما التربية الاجتماعية فهي تتمثل في العناية بحالات المتلقي في المحاورة والمكاتبة، والسؤال والشفاعة، والاعتذار، والجد والهزل، والاحتجاج والخصومة، وصحبة السلطان ورفقته. وهذه جميعاً تجعل المرء منتصراً على نفسه أولاً وعلى الآخرين تالياً." وتلحق الطّريدة ثانياً من عنانك وتمشي رويداً وتكون أوّلاً". وهذا يشير بوضوح إلى المسؤولية التي يضطلع بها ابن قتيبة المُصالِح أو المفكر الذي يريد أن يربي أفراد المجتمع تربية هادفة في عصر مضطرب ومتلاطم الأمواج.

وأما التربية العلمية فلعلها ظاهرة فيما سبق كله. ويضاف إليها أن تنظيم مادة الكتاب أصلاً هدف المؤلف من ورائها إلى التسهيل على المتعلم والدارس والناشد ليتسنى لهم جميعاً التعلم والحفظ والطلب. وربما كان هذا هو السر في تماسك المقدمة وإسهابها لتقدم الكتاب أفضل تقديم .

فالمؤلف مدرك لأهمية الثقافة الموسوعية، ومقدر لها في عصر اصطراع المذاهب والمبادئ والأفكار، وموقن أن هذه الاتجاهات المتصارعة لا يخلو كل منها من عناصر فائدة وجمال، ولا سبيل إلى جعل المثقف المسلم قادراً على التعامل معها والإفادة منها إلا بإشاعة الثقافة الموسوعية لتقبل التناقضات على أرض دينية وأخلاقية صلبة، لذلك كله أراد ابن قتيبة للمسلم في كتابه هذا أن يدرك نواحي الجمال في العالم المحيط به دون أن يقع أسير مذهب ضيق أو فكر محدود .

وعلى الرغم من أهمية هذه الرسالة التي يضطلع بها الكتاب وجوهريتها، فقد أصرّ المؤلف على أن ينهج فيه أسلوب المزج بين الجد والهزل، إدراكاً منه لطبيعة النفس البشرية، وتفهماً منه لحالة المتلقي النفسية، لكن المتزمتين من المتلقين ممن يتشدقون بالتدين قد يكون لديهم على ذلك اعتراض، فكيف ابتدرهم المؤلف بالرد. وهاجمهم قبل أن يعترضوا على الكتاب، وهو مازال يود الإبقاء عليهم ضمن المتلقين ؟

الاحتجاج لبعض موضوعات الكتاب :

يقول المؤلف موجهاً كلامه إلى المتلقي المتزمت، مؤكداً مخاطبته بكاف الخطاب الدالة على الإفراد. تخصيصاً وتقليلاً:" وسينتهي بك كتابنا هذا إلى باب المزاح والفكاهة وما روى عن الأشراف والأئمة فيهما، فإذا مرّ بك، أيها المتزمّت، حديث تستخفه أو تستحسنه أو تعجب منه أو تضحك له فاعرف المذهب فيه وما أردنا به. واعلم أنك إن كنت مستغنيا عنه بتنسكك فإن غيرك ممن يترخّص فيما تشدّدت فيه محتاج إليه، وإنّ الكتاب لم يعمل لك دون غيرك فيهيّأ على ظاهر محبتك، ولو وقع فيه توقّي المتزمّتين لذهب شطر بهائه وشطر مائه ولأعرض عنه من أحببنا أن يقبل إليه معك. وإنما مثل هذا الكتاب مثل المائدة تختلف فيها مذاقات الطعوم لاختلاف شهوات الآكلين"[24] .

فلعل من باب المراس في الحجاج أن يجعل ابن قتيبة المتزمت واحداً، فيفرده في الخطاب، ويوجه إليه الكلام بالتخصيص في الوقت الذي يخلع فيه على نفسه صفة الجمع "وما أردنا منه" فالمؤلف يمثل صوت الجماعة، أما المتزمت فإنه لا يمثل إلا ذاته وحسب. وملحظ أسلوبي آخر يضعف المتلقي المتزمت هو أن يجعله المؤلف مفعولاً به للكتاب مرة "سينتهي بك كتابنا" ولحديث أخرى "فإذا مر بك أيها المتزمت حديث" فيكون المتلقي بذلك منفعلاً أكثر منه فاعلاً. وأخيراً يتذرع المؤلف بأن المزاح والفكاهة في كتابه إنما يصدران عن الأشراف والأئمة. فكيف لهذا المتزمت –الذي يجل الأشراف والأئمة- أن يقدح بهم برفض ما يمكن أن يكون صدر عنهم؟

بعد ذلك يرفع ابن قتيبة من وتيرة الحجاج، بأن استغناء المتزمت عن بعض ما في الكتاب بحجة التمسك بالدين أو التنسك، إنما يمثل حالة خاصة به وحده، لا يشاركه فيها الآخرون، ممن يرون الأمور على وجه آخر أكثر انفتاحاً، وهؤلاء الآخرون من الناس هم غاية المؤلف وهدفه إلى جانب أولئك المتزمتين؛ لأن الصنفين معاً يمثلان الحياة والواقع. وإن المؤلف ليدرك أن الكتاب لو سار على خط صنف دون آخر لفقد شطراً من بهائه، ومن ثم لفقد قسماً كبيراً من القراء الذين يريدهم أن يقبلوا عليه .

بذلك يضرب لنا ابن قتيبة مثالاً لسعة أفق المفكر الذي ينزع إلى المعنى الإنساني العام المستند إلى طبيعة بشرية غير محدودة بفكر ديني معين، فالنفس البشرية تنزع إلى المزاح وإلى خلط الجد بالهزل أكثر من ميلها إلى إشاعة حمية الحرص والتوقي بسبب عقيدة متزمتة أو فكر منغلق .

ثم يلجأ المؤلف إلى إثبات رأيه بصياغة مثالية للكتاب، هذه الصياغة تقوم على فكرة الإباحة الدينية لأنواع الطعام المختلفة، فهي أنواع كثيرة ومباحة، لكن شهوات الآكلين هي التي تحكم الإقبال على صنف دون الآخر، تبعاً لما صرح به وهو الذوق، ومقولة الذوق هذه تنطبق على الطعام وعلى القراء بالأسلوب

(24) المصدر السابق، 1/ 15 .

ذاتـه. ومـن هنـا لـم يحـصر ابـن قتيبـة كتابـه في دائـرة رغبـة التقـوى والتزمـت، وإن كان حريصـاً عـلى أن يبقـي هـؤلاء المتزمتـون مـن بـين أفـراد الكتّـاب، لذلـك عنّـى نفسـه أن يـشرح لهـم، وأن يحتـج لقضيتـين عـلى درجـة عاليـة مـن الأهميـة وبـشيء مـن التفصيـل؛ لأنـه يتوقـع مـن هـؤلاء القـوم أن يطعنـوا في الكتـاب بسـببهما .

أما القضية الأولى فهي وجود حديث فيه إفصاح بذكر عورة أو فرج أو وصف فاحشة، قد تستثير خشوع ذلك المتزمت فيعرض عن الكتاب. واحتج ابن قتيبة لذلك بأن الرسول –صلى الله عليه وسلم– وأبي بكر الصديق وعلي بن أبي طالب –رضي الله عنهما– قد أفصحوا جميعاً في أحاديث لهم بذكر العورات دون أن يكنّوا، حيث كان الإفصاح ضرورياً، ولم يكن المقصود به إيذاء عرض أحد. ذلك أن مجرد ذكر العورة ليس من الحرام في شيء. وهذا النوع من الذكر والإفصاح هو الذي يرد في كتاب عيون الأخبار. ثم يحترز المؤلف لذلك فيقول:" ولم أترخّص لك في إرسال اللسان بالرّفث على أن تجعله هجيّراك على كل حال وديدنك في كل مقال، بل الترخّص منّي فيه عند حكاية تحكيها أو رواية ترويها، تنقّصها الكناية ويذهب بحلاوتها التعريض، وأحببت أن تجري في القليل من هذا على عادة السّلف الصالح في إرسال النّفس على السجيّة والرغبة بها عن لبسة الرياء والتصنع. ولا تستشعر أنّ القوم قارفوا وتنزّهت وثلموا أديانهم وتورّعت"[25] .

أما القضية الأخرى فهي متصلة بالسابقة ، وتختص بمسألة اللحن اللغوي في النادرة أو الطرفة أو الخبر أو الحديث. فقد أصر ابن قتيبة على ضرورة رواية النادرة المشتملة على اللحن كما هي؛ ذلك أن بعض الألفاظ الملحونة فيها قد تكون هي سر جمالها وحلاوتها. فإذا حاول الناقل تصويبها أساء إليها من حيث لا يعلم " ألا ترى أن هذه الألفاظ لو وفّيت بالإعراب والهمز حقوقها لذهبت طلاوتها ولاستبشعها سامعها وكان أحسن أحوالها أن يكافئ لطف معناها ثقل ألفاظها"[26] .

الدفاع عن تفاوت مستويات الكتاب :

إن اليقظـة النقديـة التـي يتعامـل بهـا ابـن قتيبـة مـع المتلقـي تنعكـس بجـلاء عـلى نظرتـه إلى كتابـه، وتتيـح لـه أن ينقـده قبـل أن يصـل إلى يـد المتلقـي، لذلـك يـدرك المؤلـف أن في كتابـه تفاوتـاً أو تباينـاً في المـادة عـلى المسـتوى الفنـي في الأخبـار والأشـعار. وعـلى المسـتوى التنظيمـي في توزيـع تلـك الأخبـار والأشـعار عـلى الأبـواب والفصـول، فكيـف يأتـي دفاعـه عـن هـذا التفـاوت في مسـتوييه؟

بحـرص واضـح يحافـظ المؤلـف عـلى مخاطبـة المتلقـي بـكاف الخطـاب، فيبقـى قريبـاً منـه، ويكاشـفه بحقيقـة مـا سـيرد في الكتـاب قائـلاً: "وإن مـرّ بـك خـبر أو شـعر يتّضـع عـن قـدر الكتـاب ومـا بنـي عليـه فاعلـم أنّ لذلـك سـببين: أحدهمـا قلـة مـا جـاء في ذلـك المعنـى مـع الحاجـة إليـه، والسـبب الآخـر أن الحسـن إذا وصـل بمثلـه نقـص نوراهمـا ولـم يتبـيّن فاضـل بمفضـول. وإذا وصـل بمـا هـو دونـه أراك نقصـان أحدهمـا مـن الآخـر الرجحـان"[27] .

(25) عيون الأخبار، 1/ 17 .

(26) المصدر نفسه، الموضع ذاته .

(27) المصدر السابق، 1/ 17 .

فابن قتيبة يدرك بحسه النقدي تفاوت المستوى الفني في الأخبار والأشعار في كتابه ويعلل ذلك بالسببين اللذين ذكرهما، لكنه بذكاء يحاول التشكيك بكثرة وجود هذا التفاوت فيضع الأمر في جملة بأسلوب الشرط قاصداً التقليل، ومبيناً أنه يكون في خبر أو شعر، مفرداً ذلك دون أن يجمع للإيهام بالقلة، أي قد يمر ذلك في خبر أو شعر وحسب .

والسبب الأول لهذا التفاوت الفني ناجم عن موسوعية الكتاب، وتمسك مؤلفه بأن يجعله ممثلاً لجوانب الحياة جميعاً. فهو ينقل الخبر والشعر وإن كانا دون قدر الكتاب لتتحقق الفائدة المرجوة من الكتاب، وهي التي ينهي الفقرة بها مشيراً إلى ضرورة أن تتكامل شخصية المتلقي وثقافته بتكامل مادة الكتاب، خشية أن يمر به موقف فلا يجد ما يسعفه لبلوغ مرامه فيه .

ثم رأى ابن قتيبة أن يعلل السبب الآخر بعلة ذوقية خالصة. فالأشياء الجميلة أو الحسنة، إذا ضُم بعضها إلى بعض نقص ما فيها من جمال وحسن، ولم يعد من السهل تبين الأجمل أو الحسن. وكذلك إذا وُصل الحسن بما هو دونه اتضح أن هذا الأخير أكثر نقصاً، وإنما ظهر ذلك فيه لأنه كان موصولاً بما هو أحسن منه بشكل ظاهر، أي لو تُرك وحده فربما كان أقل نقصاً مما بدا، أو لم يتضح لفاحصه أنه يمثل هذا النقص، وبهذا فإن المؤلف يقرر مبدأً نقدياً عاماً في تعليل الجودة والرداءة في الأشياء في حال اجتماعها معاً في سياق واحد .

وبخصوص دفاعه عن تفاوت الأخبار والأشعار في انتظام توزعها على الأبواب والفصول في الكتاب يقول مخاطباً المتلقي أيضاً:" وإن وقفت على باب من أبواب هذا الكتاب لم تره مشبعا فلا تقض علينا بالإغفال حتى تتصفّح الكتب كلها، فإنه ربّ معنى يكون له موضعان وثلاثة مواضع فنقسم ما جاء فيه على مواضعه، كالتلطف في القول يقع في كتاب السلطان ويقع في كتاب الحوائج ويقع في باب البيان"[28] .

فهو إذاً يصر على تكامل كتابه وموازاته للحياة. لذا يرى أن على المتلقي أن يقرأه بهذه الروح أو النظرة، فلا يجعله أبواباً منفصلة أو فصولاً مقطعة؛ لأنه كتاب موصول يصدر عن رؤية شاملة ومتكاملة للحياة وللمتلقي، والدليل الذي ساقه على تنازع الأبواب أو الفصول لموضوع محدد هو الذي يجعل القارئ أو المتلقي منصفاً للكتاب ولصاحبه فلا يقضي عليه بالإغفال قبل أن ينظر فيه كله. وبهذا ينفي المؤلف عن كتابه رذيلة التكرار ببراعة، فقد أبى أن يعيد الخبر ذاته في أبواب الكتاب أو فصوله حيثما اقتضى الأمر ذلك؛ لأن التكرار باعث على الملل، ومخل بنظام الكتاب .

مصادر الكتاب :

تنتظم مصادر كتاب عيون الأخبار -كما يوضحها المؤلف في مقدمته_ في أصلين كبيرين هما: المرويات الشفهية، والمدونات الكتابية، وتحت كل أصل منهما

(28) المصدر السابق، 1/ 18 .

فروع عدة، فالمرويات الشفهية أخذها عن الشيوخ الكبار من العلماء وعن الجلساء والإخوان، وعمن هم أصغر منه سناً وقدراً، فلم يستنكف أن يأخذ مادة كتابه عن الحديث سناً لحداثته، ولا عن الصغير قدراً لخساسته، فأخذ عن الإماء والمشركين وغيرهم محتجّاً لذلك بأن "العلم ضالّة المؤمن من حيث أخذه نفعه"(29).

أما المدونات الكتابية فتمثلت في كتب الأعاجم وسيرهم، وبلاغات الكتاب في فصول من كتبهم، وهؤلاء الأعاجم هم اليونان والهنود والفرس وغيرهم، بذلك يتجلى التنوع في المصادر الذي يحقق انفتاح المؤلف ومن ثم المتلقي على الثقافات المتعددة على ما بينها من تعارض، وما ذلك إلا لأن الكتاب "في آداب ومحاسن أقوام ومقابح أقوام"(30)، فوجب على المؤلف أن يترك لهؤلاء وأولئك أن يعبّروا بأقوالهم وألسنتهم عن أحوالهم دون تبديل أو تغيير؛ لذا فقد حرص على الإشارة الصريحة إلى مصدره قبل كل خبر، فأثبت المصدر المكتوب بذكر عنوانه، كما أثبت سلسلة السند والرواة في الخبر الشفهي .

فابن قتيبة يصدر في تعامله مع المصادر عن نزعة إنسانية عامة تتقبل ثقافة الآخر المغايرة للثقافة الإسلامية السنية، ويدلل على إمكان الانفتاح الاجتماعي على الأمم الأخرى أولاً، وعلى المذاهب المعارضة لمذهبه ثانياً، وذلك في ظل مجتمع باتت تتصارع فيه تلك الثقافات والمذاهب والاتجاهات. ولم يعد أمام المفكر المسؤول إلا أن ينزع إلى الفكر الشمولي من خلال التأليف الموسوعي الذي يمثل تنوع الحياة الواقعية دون انغلاق. فكيف احتج المؤلف لتسويغ ذلك عقلياً ونقلياً في حديثه الموجه إلى المتلقي؟

لقد تمثل برهانه العقلي في أن الحق لا يزري به أن يسمع من المشركين، وأن النصيحة تؤخذ عن المائلين عن الحق، ذلك أن الحسناء لا يضيرها بالي الثياب، واللؤلؤة لا ينتقص من قدرها أنها بنت الصدفة، والذهب أصله من الرغام، فعلى العاقل ألا يضيع الفرصة؛ لأن الفرص تمر مر السحاب .

واحتجاجه النقلي عن ابن عباس أنه قال:" خذوا الحكمة ممن سمعتموها منه، فإنه قد يقول الحكمة غير الحكيم وتكون الرّمية من غير الرامي"(31) .

ولم يتوسع ابن قتيبة في ذلك إلا لإدراكه أن كتابه ليس في علوم الدين والحلال والحرام، فإن تلك العلوم مدار أمرها على العبادة والتقليد الديني الملزم، فلا يجوز أن تُؤخذ إلا عن الحجج الثقات في هذا الباب .

لكن ابن قتيبة كان على يقين من أن علوم الدين لا تكفي لثقافة الإنسان المسلم في عصره، فلابد له من علوم الدنيا، وعلوم الدنيا هذه لابد في تعاطيها من انفتاح عقلي في التعامل مع مادتها ومع مصادرها، وهي على الرغم من

(29) المصدر نفسه، 1/ 18 .

(30) المصدر السابق، الموضع ذاته .

(31) المصدر نفسه، 1/ 18 .

ذلك كله لا تفارق علوم الدين من حيث الهدف، إنما هي تعضدها؛ لأن الطرق على الله كثيرة .

وقد جلّى المؤلف في تعامله مع المصادر قضية نقدية على قدر كبير من الأهمية حين قرر مبدأه الشهير في التعامل مع الأشعار فقد قال:" وكذلك مذهبنا فيما نختاره من كلام المتأخرين وأشعار المحدثين إذا كان متخيّر اللفظ لطيف المعنى لم يزّر به عندنا تأخر قائله كما أنه إذا كان بخلاف ذلك لم يرفعه تقدّمه فكل قديم حديث في عصره وكل شرف فأوّله خارجيّه"[32] .

هذا المبدأ النقدي يجعل جودة الشعر هي المقياس دون اعتبار للقدم والحداثة، أي دون النظر إلى الشاعر. إنما الشعر في ذاته هو الذي يستحق النظر ليس غير، ولعل ابن قتيبة ينطلق في موقفه هذا من فكرته العامة القائمة على التسوية أو التوفيق، وهو بذلك يتفق مع الجاحظ، إلا أن "ابن قتيبة أبين في التعبير عنه وأكثر إسهاباً"[33] مما يدل على شدة عنايته بمعاصريه أنصفهم شعراء وأفادهم بكتبه متلقين وكتاباً، وربما مثل هذا من جهة ابن قتيبة وعي العالم أو قلق المفكر حيال مجتمعه لإنصافه وتطوير بعض الجوانب فيه[34]، ذلك أنه رأى جهل العامة من الناس الذين يعظمون المتقدم ويغفرون زلته ويبخسون المتأخر ويتجنون عليه، وهذا شأنهم أبداً[35] ،فجاء إنصافه للمتأخرين من الشعراء أو المحدثين منهم، لينصف معاصريه وينبه العامة والكتاب على قيمتهم بمنطق عقلي تمثل بمقولته الشهيرة التي ذكرها هنا وكررها في مقدمة كتاب الشعر والشعراء، فكل قديم حديث في عصره، وكل شرف فأوله خارجيه[36] ، حتى صارت مبدأً نقدياً شهيراً دالاً على فضل صاحبه .

أبواب الكتاب وفهرسته:

جمع ابن قتيبة مادة كتابه كله من وقائع الحياة، مما تناقله الناس وكتبوه، ثم أعمل فكره فيها ليجعل لها نظاماً في كتابه فوجد أن هذه المادة على اختلاف فنونها وكثرة أبوابها تجتمع في عشرة كتب تمثل الحياة برمتها، لكنه حين نظر في كتبه المؤلفة قبل ذلك وجد ان أربعة منها تقع من ضمن هذا الكتاب الموسوعي الجديد، فماذا صنع؟

لقد رأى أن تبقى كتبه الأربعة تلك متميزة على حدة، وهي " كتاب الشراب، وكتاب المعارف، وكتاب الشعر، وكتاب تأويل الرؤيا"[37] ؛ لأنها أخذت صفة الكتب المؤلفة قبل الانتهاء من تأليف كتاب عيون الأخبار .

---

(32) المصدر السابق، الموضع ذاته . .

(33) تاريخ النقد الأدبي عند العرب، إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ط 4، 1982م، ص 107 .

(34) ابن قتيبة ومقاييسه البلاغية والأدبية والنقدية، محمد رمضان الجربي، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلام، طرابلس الغرب، ط 1، 1984م، ص 25، 200 .

(35) عيون الأخبار، 1/ 18 .

(36) المصدر نفسه، الموضع ذاته، وانظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة الدينوري، تحقيق وشرح : أحمد محمد شاكر ، دار المعارف ، القاهرة، د ط، 1958م، 1/ 62 .

(37) عيون الأخبار، 1/ 19 .

فإذا فهم الأمر على هذا الوجه يزول عجب عز الدين إسماعيل الذي قال:" الواقع أنه ليس هناك ما يفسر السبب في عدم إدراج ابن قتيبة الموضوعات الأربعة الأولى في كتاب عيون الأخبار، الذي رأينا أنه يجمع بين موضوعات شتى لا صلة بين بعضها وبعض؛ فقد كان من الممكن أن يستوعب كذلك بحثه عن الشراب وعن المعارف وعن الشعراء وعن تأويل الرؤيا"[38] .

فلو فعل ابن قتيبة ذلك لكرر مادة هذه الكتب الأربعة من جديد في عيون الأخبار، وهي التي ألفت سابقاً واستقلت، وبذا تصير كتبه متداخلة يعتريها خلل في التأليف، لكن الرجل آثر أن يجعل من كتبه جميعاً مشروعاً تأليفياً متكاملاً بحيث يحيل كل كتاب إلى الآخر دون أن يحتويه أو يورد جزءا من مادته، وقد ظهر ذلك جلياً حين ذكر في كتاب النساء قوله"...خلا أخبار عشّاق العرب فإني رأيت كتاب الشعراء أولى بها فلم أودع هذا الكتاب منها إلا شيئاً يسيراً"[39] ، والصلة بين كتابي كل جزء ظاهرة لا تخفى على أحد، وقد بيّنها المؤلف ليقنع المتلقي لذلك .

أما الكتب العشرة التي تألف منها كتاب عيون الأخبار فهي: كتاب السلطان وكتاب الحرب وكتاب السؤدد وكتاب الطبائع والأخلاق وكتاب العلم وكتاب الزهد وكتاب الإخوان وكتاب الحوائج وكتاب الطعام وكتاب النساء .

وقد أفرد لكل كتاب منها فقرة كاملة في المقدمة، عرض فيها للمفردات الواردة في الكتاب بشيء من التفصيل لتشكل عناوين للأبواب أو الفصول، ولتكون فهرسة للكتاب بعامة. وكان في ذلك كله ينظر بعين العطف على متلقيه فقال:" فهذه أبواب الكتب جمعتها لك في صدر أوّلها لأعفيك من كدّ الطلب وتعب التصفّح وطول النظر عند حدوث الحاجة إلى بعض ما أودعتها ولتقصد فيما تريد حين تريد إلى موضعه فتستخرجه بعينه أو ما ينوب عنه ويكفيك منه، فإن هذه الأخبار والأشعار وإن كانت عيونا مختارة أكثر من أن يحاط بها أو يوقف من ورائها أو تنتهي حتى ينتهى عنها"[40] وبهذا تكون المقدمة حاوية للفهرس التفصيلي لهذا الكتاب الموسوعي؛ خدمة للمتلقي وحرصاً على راحته .

أما الكتب العشرة فقد جعلها المؤلف في خمسة أجزاء بأن ربط كل كتاب منها بما يليه على الصعيد المضموني؛ ليبين عن تماسك الكتب وتلاحم الأجزاء ليتم العمل بمجمله، فحين كان يذكر مفردات كل كتاب كان يعرج على صلة الكتاب منها بسابقه. كقوله مثلاً في حديثه عن الكتاب الثاني كتاب الحرب " وهذا الكتاب مشاكل لكتاب السلطان فضممته إليه وجعلتهما جزءاً واحداً" ، وكذا يكون كتابا السؤدد والطباع والأخلاق جزءاً ثانياً، وكتابا العلم والزهد جزءاً ثالثاً، وكتابا الإخوان والحوائج جزءاً رابعاً وكتابا الطعام والنساء جزءاً

(38) المصادر الأدبية واللغوية في التراث العربي، عز الدين إسماعيل، دار المعارف ، القاهرة، ط 2، 1980م، ص 169.

(39) عيون الأخبار، 1/ 20، 21 .

(40) المصدر السابق، 1/ 21 .

خامساً؛ لأن كتاب النساء "مقارب لكتاب الطعام، والعرب تدعو الأكل والنكاح الأطيبين فتقول: قد ذهب منه الأطيبان تريدهما"[41] .

وابتداؤه بكتاب السلطان خاصة يأتي لإيمانه بأن صلاح الدين بصلاح الزمان، وصلاح الزمان بصلاح السلطان، وصلاح السلطان بالإرشاد وحسن التبصير[42] ، وبهذا يعيد القيمة الأساسية في الإصلاح إلى العلماء الذين يرشدون السلطان ويبصرونه بالحق. ولعل هذا الموقف لابن قتيبة يكشف عن نهجه خط السلامة مع السلطان بعامة، فقد آثر دوماً أن يبقى بعيداً عن الصراع مع السلاطين وهو القريب العهد لمحنة أحمد بن حنبل ، والملتزم خط الصمت حيالها والممثل للخط السني المحافظ بوعي يحرص فيه على استمرار الأوضاع في ظل قيادة سياسية دينية ذات هيبة في عصر الشعوبية واختلاط الأفكار والمبادئ، ولعله بذلك كان صاحب موقف إصلاحي معتدل .

وفي ختام مقدمته تسود عباراته هذه الروح المتواضعة الاعتدالية أو التوفيقية حين يسوق القول التالي:" وقد خفّفت وإن كنت أكثرت، واختصرت وإن كنت أطلت، وتوقيت في هذه النوادر والمضاحك ما يتوقّاه من رضي من الغنيمة فيها بالسلامة ومن بعد الشّقة بالإياب، ولم أجد بدّا من مقدار ما أودعته الكتاب منها لتتمّ به الأبواب، ونحن نسأل الله أن يمحو ببعض بعضاً ويغفر بخير شرّاً وبجدّ هزلاً ثم يعود علينا بعد ذلك بفضله ويتغمدنا بعفوه ويعيذنا بعد طول الأمل فيه وحسن الظنّ به والرجاء له من الخيبة والحرمان"[43] .

فهو يعتذر بتلطف مؤثراً السلامة وراجياً أن يكون قد قدم شيئاً متكاملاً وتاماً، مستوحياً فحوى قول امرئ القيس:

وَقَدْ طَوَّفْتُ فِي الآفاقِ ، حَتَّى ** رَضِيْتُ مِنَ الغَنِيْمَةِ بِالْإِيَابِ[44]

بعد أن أضناه العمل، وأرهقه جمع المادة وتنظيمها، مع خشيته من أن يفهمها المتلقي المتزمت فهماً ينعكس بالسلب على بعض قيمه الدينية. ثم يتحول بعد ذلك إلى الدعاء إلى الله أن يغفر له موجهاً الذكر إلى نعت الله بالأوصاف الدالة على حسن ظنه به. وقد بدا ذلك وظهر في ألفاظ العفو والحمد والمغفرة وحسن الظن والرجاء .

الخاتمة

إن مقدمة عيون الأخبار توافرت على بيان رؤية الكاتب للكتاب، وتوضيح نظريته في الكتابة، فقد سوغت فعل لكتابة وطبيعة تلك الكتابة وأهدافها العملية، بأسلوب سجالي واجه به المؤلف المتلقي وحاصره فيه وطلب إذعانه لكل ما في المحتوى، هذا المحتوى الذي خلا ظاهرياً من المؤلف والمتلقي معاً بالانحياز التام إلى النقل والرواية باعتماد التوثيق والإسناد .

(41) المصدر نفسه، 1/ 20 .

(42) المصدر نفسه، 1/ 14 .

(43) المصدر السابق، 1/ 21 .

(44) شرح ديوان امرئ القيس، حسن المسندوبي، المكتبة الثقافية، بيروت، ط 7، 1982م، ص 64 .

وكان البارز الظاهر للمتلقي في مقدمة الكتاب سبباً رئيساً في صبغ الكتاب بصبغته الذي ظهر عليها؛ لذا فقد حفلت المقدمة بعرض الآراء الفكرية والنقدية للمؤلف بشهود المتلقي ومشاركته، ليختفيا ظاهرياً معاً في متن الكتاب على الرغم من حضورهما المبطن فيه .

إن هذا الحضور يجعل ابن قتيبة أكثر وعياً بالعالم الخارجي، وأكثر هجوماً عليه؛ لذلك سمح لهذا العالم بأن يؤثِّر فيه ذاته بفاعلية كبيرة حتى غدت الكتابة كلها من أجله، أي من أجل المتلقي، وقد جاءت مواقف المؤلف معبرة عن صدى ذلك التأثير والتأثر، ومجسدة بوضوح بروز ذلك الحضور.

وعلى ذلك فإن ابن قتيبة كاتب وناقد يمثل عصراً ومرحلة، ويمثل المفكر الشمولي النفعي في طرح نظريته في الكتابة. وظهور المتلقي في أعماله بعامة بيان لطبيعة تأليف ذلك العصر وتلك المرحلة. ومن ثم كشف العلاقة القائمة بين المثقف أو المفكر وواقعه الذي يعيش فيه .

المصادر والمراجع

1. البصائر والدخائر، أبو حيان علي بن محمد التوحيدي، تحقيق: وداد القاضي، دار صادر، بيروت، ط 1، 1984م.
2. تاريخ النقد الأدبي عند العرب، إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ط 4، 1982م.
3. تفسير سورة الإخلاص، تقي الدين أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، راجع النصوص وخرّج الأحاديث: عبد العلي عبد الحميد حامد، الدار السلفية- بومباي، ط 1، 1986م.
4. خطاب المقدمات في شروح مخطوطة : لما أبدعه الحريري من مقامات، بوجمعة جمي، مقال منشور في مجلة جذور التراث، النادي الثقافي بجدة، عدد 1، فبراير 1999م.
5. دراسات في اللغة واللهجات والأساليب العربية، يوهان فلك، ترجمة: رمضان عبد التواب ، مكتبة الخانجي – القاهرة، د ط، 1980م.
6. شرح ديوان امرئ القيس، حسن المسندوبي، المكتبة الثقافية، بيروت، ط 7، 1982م.
7. الشعر والشعراء، ابن قتيبة الدينوري، تحقيق وشرح : أحمد محمد شاكر ، دار المعارف ، القاهرة، د ط، 1958م.
8. عيون الأخبار، ابن قتيبة الدينوري، ضبطه ووثق نصوصه وعلق عليه: الداني بن منير آل زهوي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط 1، 2003م.
9. ابن قتيبة العالم الناقد الأديب ، عبد الحميد سند الجندي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، د ط، 1962م.
10. ابن قتيبة ومقاييسه البلاغية والأدبية والنقدية، محمد رمضان الجربي، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلام، طرابلس الغرب، ط 1، 1984م.
11. ابن قتيبة نوابغ الفكر العربي، محمد زغلول سلام، دار المعارف، القاهرة، د ت.
12. قراءة في خطاب المقدمات واستراتيجية التقديم، محمد خرماش، مقال منشور في مجلة أفكار، عمان، عدد: 138، ديسمبر 1999م.
13. قراءة في مقدمة طبقات فحول الشعراء لابن سلام، سليمان الشطي، بحث منشور في مجلة عالم الفكر، الكويت، عدد 1، مجلد 18، سنة 1987م.
14. المصادر الأدبية واللغوية في التراث العربي، عز الدين إسماعيل، دار المعارف ، القاهرة، ط 2، 1980م.
15. مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، ناصر الدين الأسد، دار المعارف، القاهرة، ط 5، 1978م.